محمد عبده والافغاني

رغب الينا كثيرون من قرآء الجامعة ان ننشر لهم رسمي الشيخ جمال الدين الافغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده . فنشرناهما في هذا الجزء . ونغتنم هذه الفرصة لنقول كلمة في ما نشرناه في الاجزاء السابقة بشأن هذين العلامتين

كتب الينا حضرة وكيلنا في طنطا (مصر) كتاباً يقول فيه ان احد تلامذة جمال الدين الافغاني ومريديه من اخواننا المصريين قال له بعد اطلاعه على المقالات التي نشرناها بشأن جمال الدين الافغاني : انني كنت تلميذاً للشيخ جمال الدين ومن المعجبين به . وعندي رسم له حين كان في شبابه . فبعد اطلاعي على مقالات الجامعة بشأن مبادئه وفلسفته صغر في عيني وما عدت اريده استاذاً لي . وهذا رسمه الذي احفظه عندي كأثر مقدس ادفعه اليك لتبعث به الى الجامعة

فلما قرأنا هذه الفقرة رأينا انه يجب علينا ان نقول كلمة في هذا الشأن . فانه يُفهم منها ومن انتقادات لبعض صحف مصر ان غرض الجامعة مما نشرته كان (تصغير) الافغاني والحط من منزلته . ولكن معاذ الله ان يكون هذا الغرض غرضها . اننا لا نجهل ما يجب على المتأخرين من الاحترام والرعاية للمتقدمين . واذا لم يكن لهم من فضل سوى انهم كانوا اول من وضع حجارة الاساس في بناء الشرق الجديد فكفى بذلك فضلاً لهم يوجب علينا احترامهم والاعتراف بجميلهم أصابوا ام اخطأوا . اذ في هذه المسألة كما في جميع المسائل الادبية والعلمية والاجتماعية انما العمدة على سلامة النية

فعليّ ان أسعى وليس عليّ ادراك النجاح

واذا كان الافغاني قد اخطأ في ادارته (دفة) امته وأمم الشرق معها فحسبه انه كان اول استاذ للنشاط والحماسة والنهوض في الامة المصرية والسورية

في عصر كانت فيه الحمية خامدة والعقول جامدة والنفوس باردة والهمم قاعدة

قال الفيلسوف رنان في كتابه (القديس بولس) حين مقابلته بين المسيح و بولس ما خلاصته : يقولون ان بولس هو الذي نشر الدين المسيحي في اقطار الارض وانه صاحب الفضل على غيره في بقائه الى اليوم . ولكن الحقيقة ان الفضل للمؤسس المبتكر. وهذا المؤسس وان لم يفعل شيئاً سوى رسم الخطة الاولى وايحاء المبادئ الاصلية التي تبنى عليها تلك الخطة فانه يبقى معدوداً صاحب الفضل الاول

وهكذا نقول في الافغاني وكل من جاء بعده وفي جملتهم الاستاذ محمد عبده. فانه اذا كان محمد عبده قد فاق استاذه الافغاني في المنزلة العليا التي نالها في الهيئة الاجتماعية فانه لم يفقه بالعلم وسعة الاطلاع واصالة الرأي — فان كل هذه امور قلما يبلغ بها المرء في الدنيا منصباً رفيعاً . وانما فاقه (بالسياسة) فان الاستاذ رحمه الله كان داهية من دواهي الدهر في سياسة الافراد والجماعات فلم يكن احد يدخل عليه او يتعرف اليه كبيراً او صغيراً الا ويخرج من عنده راضياً . فبينه وبين جمال الدين الافغاني ما بين الفيلسوف النفعي والفيلسوف الايديالستي على ما ذكرناه في الجزء الرابع . فقد كان جمال الدين متحمساً لمبادئه لا يقبل فيها جدالاً ولا اعتراضاً . شديداً عجولاً في طلب الوصول اليها غير مجامل ولا متسامح في سبيلها . واما الاستاذ الشيخ محمد عبده فقد عرف ان التصلب والجمود لا يفيدان شيئاً وانه خير للشجرة ان تحني اغصانها تحت الزوبعة لتمر عليها بدل ان تتصلب وتقف في وجهها لتكسرها

وقد جرّنا الكلام هنا الى الشيخ محمد عبده فعلينا ان نقول كلمة في الفصول التي نشرتها الجامعة بشأنه بعد ان قلنا كلمة في الفصول التي نشرتها بشأن الافغاني

ورد في احدى رصيفاتنا في البرازيل ورصيفة عربية في الهند واثنتين من الجرائد المصرية وعدّة رسائل خصوصية وردتنا من مصر — مؤاخذة وعتاب

لان الجامعة نشرت ما نشرته بشأن الاستاذ . وقال لنا الاخ تقولا افندي حداد بعد وصوله الى نيويورك انه حين كان في مصر لم يكن احد من ادبائها يقابله الا ويذاكره في تلك الفصول . وكتب الينا حضرة وكيلنا في الاسكندرية انه حين وصول الجامعة الى الاسكندرية لم يكن لادبائها حديث الا في هذا الشأن . وان كثيرين من وجهاء المصريين وافاضلهم لاموا الجامعة لتعرّضها لهذا الموضوع

فالحق ان هذه الزوبعة من أجل لا شيء قد ساءتنا جدًّا . وانما ساءتنا لانها دلت على ان اصحابها لم يريدوا ان يدركوا غرضنا مما نشرناه . وكل ما وجدوه هو ان رجلاً كبيراً مات والجامعة قامت بعد موته تذكر عنه شيئاً لا يسرّه ولا يسر مريديه . وانتقادهم هذا يدور على امرين . الاول نشرها الرسائل التي دارت بينها وبينه . والثاني قولها عن المنشور الذي خُتمت به مناظرته مع الجامعة بشأن ابن رشد وفلسفته

ولم نجاوب على اعتراضاتهم قبل الآن لاننا أردنا ترك الزوبعة تمرّ وتسكن . فنجيب الآن

اننا نشرنا رسائل الاستاذ لانها من رجل كبير عمومي بلغ اسمى المنازل في الهيئة الاجتماعية الشرقية . وللناس الذين يحملون الرجال العظام العموميين على اكتافهم في حياتهم ولا يرون منهم الا ظواهرهم من حقهم ان يروا بواطنهم بعد مماتهم . فانك اذا اردت ان تعرف تاريخ حياة رجل وتحلل آراءه والعناصر التي رُكبت منها نفسه فلا يجب ان تكتفي بما ينشره بين الناس بل يجب ان تتعقبه في جميع اطوار حياته وتتبع افكاره وآراءه حتى في ابعد الزوايا وأعمقها . وانك لتجد احياناً في رسالة خصوصية يكتبها على غفلة منه ما لا تجده في كتاب ضخم ينشره بين الناس فيما يدل على اخلاقه وحالة نفسه . انه في منشوراته العمومية يظهر كما يجب ان يكون ولكنه في رسائله الخصوصية يظهر

كما هو . ولذلك تعد رسائله الخصوصية في جملة حياته العمومية . وهي ملك لجميع الناس

لما مات فيكتور هيغو قام الكتاب من كل صوب ينبشون حياته . فقصوا صغائرها وكبائرها حتى حبه لمثلة وسكوت زوجته عن هذا الحب مع معرفتها به . ولما توفي ايبسن في العام الماضي قاموا ينشرون له رسائل خصوصية كتبها في شيخوخته قبيل وفاته الى فتاة جميلة كانت تحبه حباً شديداً لقرائتها رواياته وكان في كتبه يفرئ منها . وفيها ما يدل على انه بدأ يحبها ولكنه كان يخشى عاقبة هذا الحب . ومذكرات البرنس دي هوهنلوه نشرت منذ ثلاثة شهور وفي بعضها كلام مهين في حق الامبراطور غليوم حتى من امه . والجامعة بحمد الله لم تنشر شيئاً مهيناً في حق الاستاذ الجليل رحمه الله ولا يمكن ان تنشر شيئاً مهيناً في حق اي شخص كان . وقد وضعت في مقدمات تلك الفصول الاستاذ في منزلة الرجال العظام الذين يحق للمشرق ان يفخر بهم اذ ليس فيه اعظم منهم . ولكننا نحن الشرقيين كما ذكرنا في فصل سابق قد اعتدنا الغلو والاختلال في كل شيء . وعلى كل شيء نحكم (بعواطفنا) لا بعقولنا . واعتيادنا عبادة الملوك والامراء والكبراء والوجهاء يجعلنا نعد جناية وتهجماً عمل كل من يريد الدنو منهم لمشاهدتهم من مكان قريب والحكم عليهم كما هم دون تزلف ولا تحامل لا كما يريدون ان يظهروا للناس . ومع ذلك فان الشرقيين يروون وينشرون كل يوم عن اعاظم الغربيين وامرائهم وعلمائهم نقداً يطير الفراخ ويصم الصماخ . أفليس هؤلاء بشر ويجب علينا احترامهم احياء واموات كما يجب علينا احترام رجالنا . ام الآداب والشهامة تقضي باحترام القريب دون الغريب . وان رجلاً كالاستاذ رحمه الله في غنى عن دفاع اي شخص كان . فان بعض الكبار اذا دنوت منهم وفحصتهم ملياً وجدتهم صغاراً . ولكن محمد عبده قلما يخسر شيئاً اذا دنوت منه وفحصت نفسه ملياً

ولعل السبب في سوء ظن بعضهم في ما نشرته الجامعة بهذا الشأن

ان الناس اعتادوا ان لا يروا مدحاً او ذماً في احد الا ورأوا للمادح والذام غرضاً خصوصياً . والجامعة لا تبرئ نفسها من هذه التهمة لان قراءها الذين لا غرض لهم يعرفونها

بقي الامر الثاني وهو (المنشور) الذي ختمت به المناظرة . فقد توهم بعضهم ان هذا المنشور يحتوي على كلام مهين في حق الاستاذ ولذلك سكت الاستاذ خوفاً من الاهانة . ما شاء الله ؟ . . لقد كنا في غنى عن ايضاح هذه المسألة اعتماداً على حسن ظن القراء في الجامعة وانفةً من الرد على سوء ظن كهذا . ولكننا اثرنا الايضاح للذين سألونا ذلك

ما زال لدينا نسخة من هذا المنشور لمن يريد الاطلاع عليه ليتحقق انه لا يحتوي على كلمة تسوء الشيخ محمد عبده . وخلاصته الرغبة اليه في انهاء المناظرة واثناء من يلوذون به عن التحامل على الجامعة والمطاعن والمسبات التي كانوا يوجهونها اليها . فان لم يفعل الاستاذ ذلك اعتقدت الجامعة ان الاستاذ راضٍ عن تلك المطاعن والمسبات وانها تنشر بموافقته فيصبح الامر بينه وبينها لا بينها وبينهم . والمنشور مكتوب للاستاذ باحترام لاننا فضلاً عن احترامنا الشخصي له نحترم فيه منصب الافتاء العالي

هذا ما رأينا الآن نشره ليكون تتمة وايضاحاً لما تقدم نشره في الاجزاء السابقة .